

## التربية

لا تقل طفولتنا البيولوجية عن ١٧ سنة، ولا تقل طفولتنا الاجتماعية عن ٣٠ سنة، ومعنى هذا أن مدة التربية عندنا طويلة؛ وذلك أننا لا نولد بأجهزة من الغرائز التامة التي نعمل بها بلا تعليم، كما تفعل صغار السمك التي تسبح عندما تخرج من بيضها، ولا بأجهزة ناقصة كما تفعل صغار الطيور التي تحتاج إلى شيء من التعليم كي تطير وتجروا على اقتحام الجو.

ذلك أننا نحن البشر قد استغينا عن الكثير من غرائزنا، أو قد وضعناها في الصفوف الخلفية من كياناتنا النفسي، وأقمنا العقل وصياً عليها يديرها ويوجهها؛ حتى إننا لا نأكل ولا نتناسل في استسلام كامل للغرائز؛ إذ إننا نسلط العقل هنا أيضاً، ونجعل له التصرف الأعلى. وصحيح أننا لا نستطيع أن نخمد هذه الغرائز، ولكننا نستطيع التصرف بها وتوجيهها.

وتسلط العقل يجعل التربية ضرورية لكل فرد منا؛ وخاصة إذا كنا نعيش في مجتمع راقٍ؛ أي أرقى وأكثر تركباً من المجتمع الزراعي أو البدوي. وتتجه التربية في عصرنا إلى إيجاد عادات ومهارات نكسب بهما العيش، وليس من شك في قيمة التربية؛ وخاصة في مجتمع لا يزال يعيش على اقتصاديات القلة وليس على اقتصاديات الوفرة التي يلتهم فجرها الآن في الأمم المتقدمة في الإنتاج الآلي، ولكن التربية يجب أن تكون للحياة قبل أن تكون للكسب.

وكذلك يجب ألا ترمي التربية إلى تعليمنا المعارف والثقافة فحسب، وإنما يجب أن توجهنا الوجهة التي نتعلم بها وحدنا. وكي نوضح قصدنا نطلب إلى القارئ أن يقارن بين أرسطوطاليس وبين تلميذ في السنة الثالثة أو الرابعة من مدارسنا الثانوية؛ فليس من شك أن التلميذ يفضّل هذا الفيلسوف في كثير من معارفه الكيماوية والبيولوجية والطبيعية

والجغرافية، ولكن أرسطوطاليس يمتاز باتجاه معين نحو البشر والكون والمعارف. وهذا الاتجاه يحتاج تلميذنا إلى خمسين أو ستين سنة حتى يصل إليه، بل قد لا يصل إليه لأنه لا يجد من يرشده.

ليست التربية السديدة أن أعرف، وإنما هي أن أعرف كيف أعرف؛ أي كيف أعلم نفسي، وأزيد معارفي، وأكون طالباً مدى حياتي. وليست التربية أني أعرف كيف أكسب العيش، بل هي أن أعرف كيف أعيش سبعين أو ثمانين سنة على هذا الكوكب في نمو لشخصيتي وترقية لذهنِي. ويجب ألا يكون هدف التربية — كما هو الآن — النجاح الحرفي للكسب؛ إذ يجب أن تهدف إلى النجاح في الحياة؛ لأن الحياة أكبر من الحرفة، والنجاح فيها يقتضي النجاح في الصحة والثقافة والعلاقات الاجتماعية والعائلية، والارتقاء الفني والذهني ... إلخ.

يجب أن تهدف التربية إلى أن تحمل كلاً منا على الاهتمام بالأثاث الأنيق والرسم الفني كما نهتم للكسب في مجتمع اقتنائي يعيش أفرادُه بالمباراة، ويجب أن تحرك استطلاعنا إلى درس الطاقة الذرية أو زراعة القطن كما تحركه إلى تقدير ألوان الجمال في الطبيعة: القمر في الريف، والشمس في البزوغ، والبحر والقفر والجبل والسهل؛ لأن هذا الكوكب كوكبنا، ويجب أن نستمتع بما فيه من روعة الطبيعة ومجدها.

والحياة الفنية تحتاج قبل كل شيء إلى درس الفنون، وإلى ترقية الإحساس الفني، بحيث نسلك ونتصرف ولنا في كل ذلك مأرب فني، حتى إذا سرنا في حديقة استمتعنا بالزهور وهي على شجرتها في إشراقها وإيناعها دون أن يبعثنا روح الاقتناء على بترها وقطفها.

ويجب أن نتعود قراءة الجريدة والمجلة والكتاب كما نتعود القهوة والشاي، ويجب أن نزداد رغبة في امتلاك هذا الكوكب نفسياً وذهنياً وفنياً كلما ازداد هو تقلصاً بالمخترعات الجديدة؛ حتى تتسع آفاقنا حساً وذهناً فلا تضيق بحدود القطر أو القارة، بل تشمل شئون العالم كله والبشر جميعهم.

ثم يجب ألا يغيب عنا أن التربية البشرية تخاطب الذهن، أي تزيد الوجدان؛ حتى نعيش في يقظة، ونطلب زيادة هذه اليقظة بتعلم المعارف والفنون، ولا نعيش زاهلين زهول الحيوان الذي تسوقه غرائزه. والفرق كبير بين الذهن اليقظ والذهن الزاهل، وهو يعود في الأغلب إلى عادة القراءة. وكذلك الفرق بين شيخ هرم قد خرف أو تبدل ذهنه، وبين شيخ لا يزال له حدة وفتوة ويقظة ونكاء، يعود إلى أن الأول لم يتعود القراءة،

وأن الثاني قد تعودها. والقراءة تجعل الكلمات مألوفة في الذاكرة سهلة الاستحضار، ولما كانت المعاني مُجسّمة في كلمات؛ فإن من البعيد جداً أن نجد رجلاً يهرم ويتبلد ذهنه ما دامت الكلمات حاضرة معدة لتنبئيه.

ومن هنا القيمة العظمى لصحة الشيخوخة من تعوّد القراءة؛ لأنّ الذهن يمرن على الفهم بالقراءة كما يمرن الجسم على الحركة بالرياضة، وتبقى هذه المرانة إلى الشيخوخة. كذلك يجب أن تكون تربيتنا موسوعية؛ أي يجب أن نلم بجميع المعارف البشرية، وقد أحدثت لنا القنبلة الذرية وجداناً بهذا الإحساس. وصحيح أنه يجب أن تكون لنا بؤرة؛ أي نقطة للتعمق والتخصص في المعارف، ولكن يجب أن نتشعب من هذه البؤرة العميقة إلى التوسع في الآفاق الذهنية الرحبة، كما يجب أن يكون كل منا سقراطياً؛ أي يعرف أنه لا يعرف فيدرس العلوم والفنون والآداب والفلسفات، ويبقى على هذا حتى يموت «وعلى صدره كتاب»، كما قيل عن الجاحظ.

وفي المستقبل القريب، بل القريب جداً، ستتغير التربية من التعليم للحرفة إلى التعليم للحياة، وعندئذ نتجه نحو استخدام فراغنا الذي سيزيد عاماً بعد آخر، وكثير منا — حتى في عصرنا هذا — يستمتعون بفراغ يبلغ أربع أو خمس ساعات كل يوم، وعندئذ ستكون مشكلة التربية: كيف يتصرف الشاب أو الفتاة بهذا الفراغ؟ وكيف ينتفع به ويستمتع؟ وهذا السؤال يعود بنا إلى النغمة التي نفتأ نعزف بها، وهي أننا يجب أن نعلم الناس كيف يعيشون الحياة المليئة، وكيف يتعمقون في حياتهم ولا يقنعون منها بالعيش على سطحها أو هامشها، نعلمهم أن غاية التربية أن يحيوا وليس أن يحترفوا، ونحرك فيهم العقل الاستطلاعي اليقظ الذي يشتهي المعارف، ويعرف أيضاً أين يبحث عنها ويجدها، ونعلمهم أن هدف الحياة أجل؛ هو الحياة في تعمق وتأنق، وليس هو الحرفة أو المال أو التفوق.

وأخيراً نقول: إن التربية الحقيقية هي التربية الذاتية؛ فلا يبيئس أحد لأنه لم يمتز بتعليم جامعي، أو لأن ظروف حياته الماضية لم تهئ له الفرص للدراسة؛ لأنه يستطيع أن يشرع في أي وقت، وأن يضع البرنامج الدراسي الذي تحتاج إليه تربيته، وهو أقدر إنسان على وضع هذا البرنامج؛ إذ هو الوحيد الذي يعرف حاجاته وكفاءاته.